الفصل الرابع

ابن المقفع أديباً

obeikandl.com

مدخل

لم تكن الديانة يوماً من الإيام عياراً يحكم به بعض النقاد والناس على جودة كاتب ما؛ أو شاعر من الشعراء؛ وإن أخذها الدارسون بعين النظر حين يدرسون أدباً من جهة الوظيفة والدلالة والهدف، ولذلك لم يكن سوء الاعتقاد الديني يرفع مكانة هذا ويؤخر منزلة ذاك؛ قديماً وحديثاً. مع الالتزام باعتماد الحكم النقدي للشروط الموضوعية للنقد، وروح المنهج العلمي الدقيق.

ويبدو لدينا أن ابن المقفع الفارسي الأصل المتهم بدينه قد أهلته قدراته الذاتية والموضوعية، ولا سيما قدراته الإبداعية التأليفية لكي يرتقي إلى منزلة مرموقة في نفوس خصومه قبل مناصريه، وليجمع من جديد بين حضارتين؛ فهو فارسي التراث عربي اللغة والغاية.

وقبل أن نتناول شهادة القدماء والمحدثين به وبأدبه وأثره فيهم علينا أن نشير بسرعة إلى الأسباب التي جعلته يحظى باحترامهم وتقديرهم لمنزلته الأدبية والفكرية.

فابن المقفع نشأ في كنف أسرة تضطلع بمسؤوليات ثقافية غير هينة؛ فأبوه - مثلاً - كان يعمل لدواوين الولاة في صناعة الكتابة زمن الحجاج بن يوسف الثقفي، وهذه المهنة تتطلب مهارات عالية وخاصة من صاحبها، والظاهر أنه أدرك ما يتصف به ابنه عبد الله من ملامح النجابة والاستعداد لهذه الصناعة، فعني به عناية فائقة سواء على صعيد تدريبه على الكتابة أم على صعيد تزويده بالأسلحة المطلوبة لها، ولم يخيب الابن آمال أبيه فسرعان ما ارتقى في

obeikandi.com

هذه الحرفة الهامة مبكراً، ودخل دواوين الولايات لعهد بني أمية، ساعده على هذا حدة ذكائه؛ ورهافة حسه، ورقة ذوقه وسرعة فطنته، وشدة بداهته، وما امتلكه من معارف واسعة ومتنوعة، وبخاصة ما يتعلق بالثقافة الفارسية، ثم عضد ذلك كله بإتقان الفارسية القديمة (الفهلوية) التي لا يعرفها إلا القليل النادر من أبناء فارس فضلاً عن حذفه للعربية؛ مما هيأه للتسلح بمنهج علمي معرفي دقيق، وقد ساعده على ذلك كله مناخ الحرية الفكرية التي سادت في الدولة الإسلامية.

وكان يستكمل ثقافته العربية وعلوم لغتها كلما تردد على بني الأهتم، وهم أفصح تميم؛ على شهرة هذه القبيلة بالفصاحة، فنشأ ابن المقفع فصيحاً بليغاً عارفاً بأساليب العربية وألفاظها، حتى شهد له الأصمعي بها فقال: (قرأت آداب ابن المقفع فلم أر فيها لحناً إلا قوله: العلم أكثر من أن يحاط بالكل منه فاحفظوا البعض) فموضوع اللحن الذي يراه إدخال (أل) التعريف على (كل)و(بعض)[1].

وكان يحفزه إلى هذا كله دافع ذاتي شخصي، وطموح لا نظير له حتى روى الأصمعي أنه قيل لابن المقفع: (من أدبك؟ فقال نفسي، إذا رأيت من غيري حسناً أتيته؛ وإن رأيت قبيحاً أبيته)[2]. ومن ثم وجدنا لديه إخلاصاً منقطع النظير في طلب العلم والصبر فيه، والسعي الدؤوب إلى تحقيق المزج الحضاري بين الثقافة الفارسية والعربية بدافع ذاتي صرف، ولم يكن بدافع من والٍ أو وزير أو خليفة، إذ لم يستوزر لأحد، وإن كان قد عمل لبعض الولاة في نيسابور

(1) انظر المزهر 2/ 158.
(2) وفيات الأعيان 2/ 151.

obeikandl.com

والأهواز والبصرة، فما كسبه من مال في عمله لدواوين هذه الولايات جعله في اتجاه نبيل وشريف، إما أنه قد تكرم بقسم منه على من يحتاج إليه، وإما صرفه في حقول المعرفة في ترجمة الكتب وتأليفها، ولهذا كله نرى أن طموح ابن المقفع لم يتوقف عند كسب المال، وإنما كان ذلك منه لإثبات ذاته الإبداعية الأدبية بين كتاب عصره، والتفرد بإبداعات لم يكن بمقدورهم أن يقوموا بها، في عهد لم يكن للكاتب الناشئ حظه من الشهرة، ولم يكن للكاتب الذي يعمل بجهد فردي خاص الحظوظ الكبرى من المعرفة أو دخول الدواوين، فهو أقل حظاً وشأناً من الكتاب الذين تتبناهم مراكز الولايات أو الخلافة.

ويبدو أن الحظ ابتسم لابن المقفع في مطلع الدولة العباسية حين راسل عيسى بن علي عم المنصور وكان بالأهواز، فرحب به كاتباً له ولأخيه إسماعيل، ومن ثم مؤدباً لأولاده، وقد وفق لهذا الرضا الكبير من قبل أعمام الخليفة ما كان يتصف به ابن المقفع من قدرات أدبية رفيعة، وما انطبع عليه من أدب خلقي نبيل، مما جعله يخترق المسلمات المعروفة في عصره بشأن الكتاب، ليصبح واحداً من عباقرة الأدب العربي الذين طوروا أساليبه، وبخاصة ما يرتبط بالتأليف؛ وصناعة الرسائل، بينما ظل أبو أيوب المورياني حبيس ما كتب وكان من أشد الكتاب عداء لابن المقفع؛ ولعله وحده كان وراء عدم دخوله لدواوين الخليفة أبو جعفر.

لقد استطاع ابن المقفع بعقله الجبار، وبداهته الحادقة أن يملك ذخيرة لغوية عظيمة، ومادة فكرية واسعة؛ مما هيأه لتطوير أساليب العربية ذاتها؛ فوصل

obeikandl.com

بها إلى درجة قربته من الإتقان المنشود القائم على الوضوح والجمال الفني. ولعل زمن البدايات الذي عاش فيه ابن المقفع يبرز قيمة ما قدمه للعربية والبحث الأدبي والفكري، إذ لم يسبق من الكتاب المبرزين إلا بأستاذه وصديقه عبد الحميد الكاتب؛ وسالم مولى هشام بن عبد الملك، وزمن البدايات -عادة- تعتريه أخطاء كثيرة؛ وتشوبه أوهام عديدة؛ وتحيط به أخطار شتى؛ علماً أن معارف الناس -دائماً- مركبة على النقص، وكذلك عقولهم، والكمال لله وحده.

وإذا كانت تلك البدايات قد ضربت بعصاها الغليظة العديد من الكتاب ممن لم يتصفوا بالموهبة والإبداع والتفرد فإنها كانت تهيء ابن المقفع ليكون جسراً حضارياً من جسور العمالقة التي تعبر عليها الأجيال من حضارة إلى أخرى، وليصبح المثل الحي للشباب العالم الطموح في الوصول إلى مكانة متفردة في الإبداع يقر بها العدو قبل الصديق. إذ أكد بما لا يقبل الشك - أن الإبداع الذاتي الفردي المتصف بالدقة والنزاهة والوضوح والموضوعية والمنهجية...و...قادر على البقاء والنفاذ إلى الناس في كل زمان ومكان، وإلى إي جنسية ينتمون...ولا يمكن لهذا الإبداع أن يذهب أدراج الرياح ولا سيما حين يثبت حيويته وعظمة الأفكار التي يقدمها للأمة وللبشرية...فضلاً عن الأساليب الكتابية والبلاغية التي يرتقي بها عما قبل...ومن هنا نتحدث عن مكانته الأدبية.

مكانته وأثره

نفذ ابن المقفع ببصيرته الثاقبة إلى الثقافة الفارسية التي يمتلكها ويعرفها فجعلها مادة ثرة يعتمد عليها في آثاره التي صيرها وسيلة أساسية إلى تحقيق جسر التواصل الحضاري بين أبناء الأمة الإسلامية بكل انتماءاتهم العرقية؛ وإن كان العرب والفرس يشكلون فيهم الكتلة الأعظم، فابن المقفع حقق بالمادة الثقافية التي توافرت له من التراث الفارسي جسر المزج الثقافي بين القديم والحديث؛ دون أن يكون لديه روح التعصب الشعوبي، كما زعمه عليه غير دارس، ولو أن هذه الشعوبية مطبوعة فيه لما ترجم كتاب (كليلة ودمنة) وهو على دراية حقيقية بأنه هندي، وقد ذكر ذلك في مقدمته[3]،ويؤيد هذا -أيضاً - أنه ترجم المؤلفات اليونانية المكتوبة بالفارسية. وقد يقال: إنه لا يتقن من اللغات إلا الفارسية والعربية؛ لذلك ترجمها، ونقول: كان بإمكانه أن يترجم غيرها من التراث الفارسي الخالص، لو كانت النزعة الشعوبية تتملكه[4].

وبناء على ذلك كلنا نذهب إلى أن ابن المقفع ترجم ما يراه مفيداً للأمة الإسلامية؛ سواء أصاب أم جانبه الصواب، ولهذا نقول: أياً كان اختلاف القدماء والمحدثين حول زندقته أو عصبيته لفارس مثيراً للجدل والنقاش في كل زمان ومكان، فإنهم اتفقوا ـ غالباً ـ على أن ابن المقفع أديب من طراز خاص، استحق بكل جدارة أن يكون رأس البلغاء العشرة في زمانه[5] وهو

(3) انظر كليلة ودمنة 32 ودراسات في الأدب المقارن 186.
(4) راجع ما تقدم (حاشية 16,17، 18) من الفصل الثاني.
(5) انظر مثلاً: الفهرست 182 وخزانة الأدب 3/ 460 وضحى الإسلام 1/ 173.

obeikandl.com

عند الخليل بن أحمد الفراهيدي يتصف بعلم غزير؛ وإن لم يكن عقله بمقدار عظمة علمه[6]، ثم أن الأصمعي كما سيق لنا إثباته قبل قليل قد شهد له بالفصاحة والخلق، بينما جعل الجاحظ كتبه وبلاغته مصدراً لتعليم الناشئة فضلاً عن اقتباساته العديدة منه في مؤلفاته المتنوعة.

فالجاحظ يقر له بذلك حين يحدثنا عن الكاتب الناشئ من كتاب الفرس فيقول: (إذ وطئ مقعد الرياسة؛ وتورك مشورة الخلافة، و روى لبزرجمهر أمثاله، ولأردشير عهده، ولعبد الحميد رسائله؛ ولابن المقفع أدبه، وصير كتاب مزدك معدن علمه؛ ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ظن أنه الفاروق الأكبر في التدبير، وابن عباس في العلم بالتأويل)[7].

وهذا أبو بكر الأصم (ت 225هـ) -على اتهامه لابن المقفع برقة الدين - يعترف له بالعلم وجودة الرواية فيقول: (ما رأيت شيئاً إلا وقليله أخف من كثيره إلا العلم؛ فإنه كلما كثر خف محمله. ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا مع غزارة علمه وكثرة روايته كما قال الله سبحانه: (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) (الجمعة 5/62)؛ قد أوهنه علمه، وأذهله حلمه، وأعمته حكمته، وحيرته بصيرته)[8].

فأبو بكر على الرغم من أنه يقدح في دين الرجل لكنه يقر له بأربعة أشياء العلم والحلم والحكمة والبصيرة، وقد جعله المؤرخون والأدباء مصدراً أساسياً

(6) انظر رسائل الجاحظ 2/ 122.
(7) رسائل الجاحظ 2/ 122 وانظر البيان والتبيين 1/ 115 و208 و 252، 2/ 198؛ و 3/ 29و 174و 267و 4/ 24 والصناعتين 171.
(8) رسائل الجاحظ 2/ 125.

obeikandl.com

في كتبه يثقون بكل ما يكتبه، ومن هنا نعجب كيف يوثقون بمن لا دين له ويأخذون عنه العديد من الأفكار والآراء؟! فلعمري هذا مما يحتاج إلى النظر فيه طويلاً من كل من اتهمه برقة الدين، فابن قتيبة الفقيه الموثق في خلقه ودينه ينقل عن آثار عديدة لابن المقفع، ويصرح بأسمائها فينقل عن كتاب سير العجم والآداب الكبير والتاج وكليلة ودمنة واليتيمة والآيين[9].

وحين صرح بأسماء الكتب التي نقل عنها، فإنه أشار إليها دون تصريح في العديد من المواضع في كتابه (عيون الأخبار)[10]، وكذلك أفاد (الطبري: القارئ المفسر) في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) وذكر أنه أفاد من كتاب ابن المقفع (تاريخ ملوك الفرس)، وهو المعروف بـ(خداى نامه)[11].

وجعل ابن طيفور رسائله في نهاية المختار من الكلام وحسن التأليف والنظام[12]. وكذلك شهد ابن عبد ربه (ت 328هـ) لابن المقفع بأنه أحد من نبل بالكتابة[13]؛ بينما هو عند ابن خلكان (608 - 681هـ) (الكاتب المشهور بالبلاغة، صاحب الرسائل البديعة)[14].

فابن المقفع خطيب شاعر كاتب (جيد الكلام فصيح العبارة، له حكم وأمثال مستفادة) على حد قول الشريف المرتضى؛ وإن كان عنده قليل الدين[15]، وكذلك هو من رواد البلاغة وجهابذة الفصاحة عند ابن الأثير[16].

(9) انظر عيون الأخبار 1/ 3و 5و 18و 27و 59و 96و 133و 151و 168و 176و 281و 289...وغير ذلك.
(10) انظر مثلاً عيون الأخبار 1/ 15و 18 و19و 22و 25و 27و 30و 3/ 191.
(11) انظر ضحى الإسلام 1/ 177.
(12) انظر جمهرة رسائل العرب 3/ 48
(13) انظر العقد الفريد 4/ 170.
(14) وفيات الأعيان 2/ 151.
(15) أمالي المرتضى 1/ 136.

ولعل من أهم الأمور التي تبرز مكانة ابن المقفع في الكتابة والأدب أن عيسى بن علي وأخوته قد استخلصوه لأنفسهم؛ وأغدقوا عليه المال الوفير لما وجدوا فيه من كفاءة معرفية، ومهارة إبداعية في الكتابة؛ وما يملكه من صفات خلقية قل اجتماعها عند غيره في شخص واحد، مما هيأه لكي يكون مؤدباً لأولادهم أيضاً[17]. ويمكن للباحث أن يدرك مكانة ابن المقفع الأدبية مما تركه من أثر واضح في الشعراء والكتاب، فأكثر حكم أبي العتاهية وزهده من كتب ابن المقفع، وكذلك فتن العتابي بها وظهر أثرها في شعره؛ كما برزت في زهديات صالح بن عبد القدوس[18]. ولعل بشار بن برد قد أستلهم أبياته في الصداقة؛ مما قيل فيها في كتابي (الأدب الكبير - والأدب الصغير)؛ وإن كان بشار قد مزج هذا الأثر بما ورثه من الشعر القديم كما في قول النابغة:[19]

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث؛ أي الرجال المهذب؟

وقال بشار:[20]

إذا كنت في كل الذنوب معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحداً أوصل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه؟

---

(16) انظر المثل السائر 4/ 50- 51.
(17) انظر العقد الفريد 4/ 179 وما بعدها.
(18) انظر ضحى 1/ 181و 190 وابن المقفع 239.
(19) ديوان النابغة الذبياني 74.
(20) ديوان بشار بن برد 1/ 309.

openkandil.com

فمعاني هذه الأبيات مشابهة لما عند ابن المقفع في قوله:

(تحفظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب، وطب نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي؛ مداراة لئلا يظن أصحابك أن دأبك التطاول عليهم) [21]؛ وقوله: (وإن استطلت على الأكفاء فلا تثقن منهم بالصفاء)[22]، ومن أحسن ما قاله في هذا المقام وأخذ غيره منه قوله: (اجعل غاية تشبثك من مؤاخاة من تواخي ومواصلة من تواصل توطين نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك، وأن ظهر لك منه ما تكره فإنه ليس كالمملوك تعتقه متى شئت أو كالمرأة تطلقها إذا شئت، ولكنه عرضك ومروءتك؛ فإنما مروءة الرجل إخوانه وأخدانه)[23]. تلك هي صورة مجتزأة من مكانته وتأثيره في القدماء، ولابد لنا من أن نشير، إلى هذا عند بعض المحدثين، ولو أردنا الاستفاضة حول مكانته لذهبت بالدراسة كلها، وكذلك يقال في أثره في كل من جاء بعده، فالدكتور طه حسين أحد من اتهمه بالزندقة، كما اتهمه بضعف التراكيب، ووصفه بأنه أشبه بالمستشرقين هذه الأيام، يقول: (عندما تقرؤون كتابة ابن المقفع تجدون فيها شيئاً من الالتواء والدوران، ونحس ونحن نقرأ أن الكاتب يجد مشقة في التعبير عن المعاني التي يحسها، ونحس هذا الضعف الذي يكلفه الكاتب للعربية؛ ربما لم يكن النحو العربي مستعداً لأن يحتملها. وابن المقفع، مع أنه زعيم الكتاب وصاحب الآيات؛ وواضع المثل الأعلى

(21) الأدب الكبير 105.
(22) الأدب الكبير 106.
(23) الأدب الكبير 108.

obeikandi.com

للكتابة، لم يكن عظيم الحظ في الفصاحة والنحو العربي. والمقارنة بينه وبين ما كتب أصحاب النحو وغيرهم تظهر على أنه لم يكن أكثر من مستشرق يحسن اللغة العربية والفارسية، ويبذل جهداً عظيماً فيوفق كثيراً، ويخطئ أحياناً)[24].

فابن المقفع عند الدكتور طه زعيم الكتاب، وواضع المثل الأعلى للكتابة؛ ولكنه من جهة التراكيب النحوية يوفق كثيراً في استعمالها استعمالاً يوافق النحو العربي، ويخطئ أحياناً... فهو يشهد له بمكانته الفريدة في الكتابة؛ لكنه يأخذ عليه ضعف بعض التراكيب بفعل الترجمة. وإذا كان الضعف لم يخرجه من الفصاحة فإنه لم يكن عظيم الحظ فيها؛ فهو لا يبلغ مبلغ سالم بن عبد اله (مولى هشام) وكاتبه على ديوان الرسائل، الذي نقل رسائل أرسطو المفقودة [25].

ومن ثم فإن الدكتور ضخم الخطأ الوحيد الذي أخذه الأصمعي عليه، ثم خالف ما قاله الخليل بن أحمد وغيره؛[26] لأنه جعل لغة الترجمة المباشرة للمعاني في كليلة ودمنة طعناً في فصاحته؛ فهي لا تبلغ مرتبة فصاحة أصحاب النحو، على اعترافه بفضله في هذا الكتاب فقال: (وأبقى أثر حفظ منه هو كتاب كليلة ودمنة الذي لا أحدثكم عنه فكلكم يعرفه؛ وإذا قرأتموه متفكرين متدبرين، فقد ترون أن لغته العربية تحتاج إلى شيء من العناية أكثر مما فيه الآن). ثم يفضل عبد الحميد الكاتب عليه في

(24) من حديث الشعر والنثر 32- 33.
(25) انظر الفهرست 171.
(26) راجع مدخل الفصل الأول وحاشية 70و 71و 72 من الفصل الأول.

obeikandl.com

لغته، (وربما لم يوجد كاتب يعدل عبد الحميد فصاحة لفظ، وبلاغة معنى واستقامة أسلوب. فهو من أحسن من كتب العربية؛ ومرنها، وأقدرها على أن تتناول المعاني المختلفة وتؤديها. وربما كان عبد الحميد الأستاذ المباشر للكتاب المترسلين وبنوع خاص للجاحظ. أما ابن المقفع فأمره مختلف، وله عبارات من أجود ما تقرأ في العربية، وبنوع خاص في الأدب الكبير؛ وفي كليلة ودمنة، فلاحظ الأصمعي أنه كان يلحن فيضيف (ال) إلى كل وبعض، وأخذ عليه الجاحظ أنه لم يكن يحسن كل ما يحاوله من الفنون)[27].

ومأخذ الجاحظ على ابن المقفع بأنه لا يحسن الشعر، بينما يقر له بالفصاحة[28]. والعجب كل العجب من الدكتور كيف يسند إلى الجاحظ رأياً لم يقله وكذا أول رأي الأصمعي ثم حاول أن يدعم زعمه باختيار مثال من (رسالة الصحابة) يدل على لغة ابن المقفع المضطربة لا الجيدة. ثم يقول فيه: إنه (يحسن اللغة العربية فهماً، وربما أعياه الأداء فيها)[29]. والظاهر أن الدكتور قد أدرك قيمة ابن المقفع وكتاباته في إطارها الزماني، وبأن الضعف الذي أصابها لم يكن إلا لأن الرجل يكتب في أول عهد النثر الفني بالوجود؛ فليس غريباً ألا يستقيم له النثر كما كان يستقيم لرجل كعبد الحميد. وليس ابن المقفع بدعاً في هذا فكتاب اليونان كانوا على مثل ما كان عليه ابن المقفع من ضعف في التعبير؛ لأنهم لم يتعودوا أداء

(27) من حديث الشعر والنثر 48- 49.
(28) انظر البيان والتبيين 1/ 208و 210- 2/ 211.
(29) من حديث الشعر والنثر 49.

obeikandl.com

هذه المعاني من قبل. فليس على ابن المقفع حرج في أن تضطرب لغته وتستعصي عليه، وإنما الحرج على الذين يريدون أن يتخذوا ابن المقفع مثلاً وآية للبلاغة دون إمعان أو رواية[30]. ويبدو أن هذا الرأي وغيره من آراء الدكتور طه حسين قد لقي صدى طيباً عند الدكتور حمزة فاحتذاه حذو القذة بالقذة[31]. ومن يتأمل موقف الدكتور طه ومناصره يدرك جملة من القضايا؛ أبرزها أن الرجلين يقران لابن المقفع بالفصاحة والبلاغة؛ ولكنها ليست البلاغة الكاملة؛ وتعليل ذلك أنه كان يعيش في زمن بدايات النثر الفني... بيد أن هذا الزمن لم يجعل لغة عبد الحميد مضطربة كما هي لغة ابن المقفع على الرغم من أن عبد الحميد استاذ ابن المقفع وسابقه في ترتيب الأجيال على معاصرتهما، ولو افترضنا جدلاً أن لغة عبد الحميد افصح من لغة ابن المقفع، فهذا لا يسقط من منزلة ابن المقفع وفصاحته عندنا؛ بل يجعله في منزلة أعلى -على الأرجح - لأنه راد حقولاً من المعاني والفنون والأساليب لم يعرفها عبد الحميد. ولهذا يصح ما قيل: (عبد الحميد أصل، وابن المقفع ثمر)[32]، بهما معاً تأثر الجاحظ وغيره، وشهد لابن المقفع بالفضل لأنه مقدم (في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير...)[33]. ونكتفي بهذا لنقف قليلاً مع أحمد أمين، ونراقب قوله: (وابن المقفع من أقوى الشخصيات في عالم الأدب العربي؛ قوي في خلقه؛ قوي في عقله وسعة علمه؛ قوي في لسانه... ثم هو واسع الاطلاع،

(30) من حديث الشعر والنثر 51.
(31) انظر ابن المقفع 120- 124.
(32) ضحى الإسلام 1/ 198.
(33) أمراء البيان 95، وانظر البيان والتبيين1/ 208.

obeikandl.com

مضطلع باللسانين العربي والفارسي، نقل خير ما رأى باللغة الفهلوية إلى اللسان العربي)[34]. وقد يكون الدكتور حمزة من أشد أعداء ابن المقفع من المحدثين، ولكنه اعترف له بفن الكتابة فقال: (وأنت تعلم أن هذا الرجل من أوائل الكتاب في العربية، وقل ثاني اثنين مارسا فن الكتابة الفنية)[35].

أما الدكتور شوقي ضيف، وهو من أيد القدماء بتهمة الزندقة؛ فإنه يروي عنهم أيضاً كل ثناء على بلاغته وتقدمه في الترجمة والكتابة، وينقل رأي ابن النديم الذي يجعل ابن المقفع رأس البلغاء العشرة في زمانه[36]. ولا يكتفي بهذا بل يقول: (من يتقص المراحل الأولى من نشأة الكتابة الفنية يكشف عن جملة من جوانب الإبداع والتفرد كسالم مولى هشام، وعبد الحميد الكاتب وابن المقفع الذي شهد له الكثيرون من القدماء والمحدثين بالتقدم والبلاغة)[37]. ونقول ما قاله محمد كرد علي في هذا المقام؛ (ولا نطيل بنقل ما قاله أعيان البيان في بلاغة ابن المقفع؛ فإن كتابته تدل على نفسها، ولم يعرف لمتقدم ولا لمتأخر أن نقل إلى اللسان العربي شيئاً في الأدب والعلم، لا تحس فيه أثر اللغة المنقول عنها إلا ابن المقفع. وكانت الترجمة غالبة عليه في أول حياته، فلما استولت أدواته أنشأ ينشئ رأساً؛ فبذ البلغاء في الناحيتين: في الترجمة والتأليف)[38].

(34) ضحى الإسلام 1/ 197- 198 وانظر الصناعتين 23و 64و 171.
(35) ابن المقفع 125.
(36) انظر الفهرست 182 والعصر العباسي الأول 522 والفن ومذاهبه في النثر 185- 186.
(37) العصر العباسي الأول 507.
(38) أمراء البيان 91.

openkanal.com

ولا بأس علينا -أيضاً - أن نثبت ما قاله أحمد حسن الزيات: (كان ابن المقفع ذكي القلب فصيح المنطق ضليعاً في أدب العرب والفرس) ثم ربط كلامه بكلام للجاحظ (كان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير)[39]. ولهذا كله ظهر ابن المقفع في المحدثين؛ حين أنزلوه في منزلة أدبية مرموقة؛ وحين جعلوه أحد عباقرة التجديد في النثر العربي وأساليبه؛ فما استطاعوا تجاوزه؛ وهم يتحدثون عن الأدب العربي، ولا سيما أولئك المعادين له. ولا يسقط مكانته عند المحدثين أن بعضهم أعرض عن ذكره إعراضاً كلياً، كما فعل أنيس المقدسي في كتابه (تطور الأساليب النثرية)، ومحمد يونس عبد العال في كتابه (في النثر العربي)؛ ومصطفى ناصف في كتابه (محاورات مع النثر العربي) الذي خصه بالجاحظ في نقطتين (النثر في عالم متغير؛ وشروط الكتابة)، وهي الشروط التي استمدها من السابقين له، ومنهم ابن المقفع. فنحن لا ننكر عظمة الجاحظ في إنضاج أسلوب الترسل؛ لكننا ننكر تغافل بعض الكتاب عن ابن المقفع.

ولم ينتظر ابن المقفع من الدارسين جميعاً أن يقفوا عنده -وليس بالضرورة هذا - تبعاً لطبيعة كل بحث لهم، على الرغم من أن مكانته في النثر العربي لم تعد مكانة عربية إسلامية، ولم يعد -من ثم - أثره محصوراً في الأثر العربي والإسلامي قديماً وحديثاً، فمكانته غدت مكانة عالمية، ولا سيما ما يرتبط بالحديث عن كتابه (كليلة ودمنة). فهذا الكتاب

(39) تاريخ الأدب العربي- الزيات- 213.

openkandi.com

ترك أثره في الأدب العربي والإسلامي القديم وأخذ كثير من الأدباء ينظمونه أو يجرونه على منواله في التأليف[40]، ويعد المعري أحمد بن عبد الله (363 -449هـ/ 973 - 1057م) أحد من ألف كتاباً على مثال (كليلة ودمنة) سماه (القائف) ثم فسره بكتاب آخر سماه (منار القائف) بلغ عشرة كراريس[41]. وكذلك ظهر آثر الكتاب في الآداب الغربية والإسبانية والفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والسلافية والدنمركية والهولندية[42].

ويعد الشاعر الفرنسي (جودو لافونتين 1621 - 1695م) من أبرز الغربيين تأثراً بكتاب (كليلة ودمنة). وقد ترجمه إلى الفرنسية عن اليونانية (جبرائيل كوتيه) سنة (1556م)، وهناك ترجمات أخرى تحدث عنها (لافونتين) نفسه في الجزء الثاني من حكاياته التي اقتبسها من كليلة ودمنة؛ وبلغت عشرين حكاية صاغها بأسلوبه الخاص المتعمق بالفرنسية وتعابيرها الأصلية والمعاصرة وقد اتصفت بشدة الإيجاز؛ وكان بهذا الأسلوب أكثر حنكة وقدرة على التكثيف من ابن المقفع.

ونرى أن (لافونتين) لم يكتف بتأثره الكبير بابن المقفع، وإنما ظهر أثر غيره كذلك في حكايات لافونتين؛ فقد تأثر بثقافته القديمة والمعاصرة؛ مما جعله يتصرف تصرفاً واسعاً في الحكايات المستمدة من كليلة ودمنة،

(40) انظر ضحى الإسلام 1/ 220- 221 وتاريخ الأدب العربي- بروكلمان- 3/ 96 وابن المقفع 218- 221 عن كشف الظنون 2/ 160 وانظر حاشية 230 مما يأتي.
(41) انظر ضحى الإسلام 1/ 221 عن كشف الظنون 2/ 160 وانظر حاشية 230 مما يأتي.
(42) انظر تاريخ الأدب العربي- بروكلمان- 3/ 92- 96 وابن المقفع 188- 213- 218، ودراسات في الأدب المقارن 175و 193- 196.

obeikandl.com

مثل قصة (الثعلب والتيس). فبعد أن يعرض تصوره لكل منهما يوردهما بئراً؛ فيرتويان منه؛ لكنهما لا يفلحان في الخروج منه؛ فاحتال الثعلب وصعد على قرن التيس مستغلاً غباءه، ثم تركه ليقول له في ختام الحكاية: (لو منحك الله من الذكاء بقدر ما أنبت شعراً في لحيتك لما نزلت من دون تفكير إلى هذه البئر، أما أنا فالوداع. لقد نجوت، حاول أن تنقذ نفسك، وابذل الجهد. إنني مشغول جداً الآن؛ ولا استطيع التوقف في الطريق، وعلى كل حال يجب التفكير في نهايات الأمور)[43].

ولا يمكن للباحث أن يرتاب لحظة واحدة في تأثر لافونتين بابن المقفع، وإن كان كل منهما قد عالج موضوعات تناسب روح العصر الذي يعيش فيه لكنها تتركز في الظلم السياسي وما فيه من قهر واستبداد واغتصاب، وبالواقع الاجتماعي الفاسد.

وإذا كان لافونتين قد تفوق على ابن المقفع في استبطان عالم الحيوان وأنسنة أفكاره وشخصياته فإن الفضل الأكبر لابن المقفع الذي قدم له مادة جاهزة قائمة على أسلوب الألغاز والاستعارة، ومن ثم فكل منهما قدم تراثاً عظيماً للإنسانية، وأسهما في مفهوم التفاعل الثقافي الحضاري بين الشعوب في معالجة الهموم الإنسانية المشتركة. ثم عاد العرب فترجموا أكثر حكايات (لافونتين)، كما سبق إليه محمد عثمان جلال (ت 1898م) في كتابه (العيون اليواقظ في الحكم والأمثال والمواعظ)، ولكنه عرب الأماكن، وأضاف إلى الترجمة بعض النصائح والحكم

(43) بين ابن المقفع ولافونتين 91- 92.

obeikandi.com

المستمدة من القرآن الكريم والحديث الشريف، وأضاف أيضاً بعض الأزجال والأشعار، كحكاية (الثعلب والعنب) التي يحفظ بعضنا أبياتاً منها منذ المرحلة الابتدائية[44].

وأما أحمد شوقي الذي فتح باب الحكايات في الشعر العربي الحديث فقد جمع بين تأثره بابن المقفع وتأثره الواضح بحكايات لافونتين، وقدم لنا أكثر من خمسين قطعة قصصية حيكت على لسان الحيوان؛ تضمنها الجزء الرابع من الشوقيات[45]. ولعل أكثرنا يحفظ قصيدته (الثعلب والديك)؛ وفيها يقول:[46]

برز الثعلب يوماً ... في شعار الواعظينا
فمشى في الأرض يهذي ... ويسب الماكرينا
ويقول: الحمد لله ... إله العالمينا
يا عباد الله، توبوا ... فهو كهف التائبينا
وازهدوا في الطيران إن الـ ... عيش عيش الزاهدينا
و أطلبوا الديك يؤذن ... لصلاة الصبح فينا
فأتى الديك رسول ... من إمام الناسكينا

---

(44) انظر العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ / ص 10/ مثلاً، وفيه هذه الحكاية عن (الثعلب والعنب):
حكاية عن ثعلب ... قد مر تحت العنب
وشاهد العنقود في ... لون كلون الذهب
وغيره في جنبه ... أسود مثل الرطب
والجوع قد أودى به ... بعد أذن المغرب
فهم يبغي أكله ... منه ولو بالتعب
عالج ما أمكنه ... يطلع فوق الخشب
فراح مثلما أتى ... وجوفه في لهب
وقال: هذا حصرم ... رأيته في حلب
وانظر دراسات في الأدب المقارن 205.
(45) انظر الشوقيات 4/ 120- 186 ودراسات في الأدب المقارن 210.
(46) الشوقيات 4/ 150.

obeikandi.com

عـرض الأمـر عــلـيـه وهــو يـرجـو أن يلينا

فأجاب الـديـك: عذراً؛ يــا أضـل المـهـتـديـنا

بــلــغ الـثـعـلـب عـنـي عن جدودي الصالحينا

عن ذوي التيجان مـمن دخـل الـبـطـن اللعينا

أنـهـم قـالـوا، وخيـر الـ ـقـول قـول الـعـارفينا:

مــخـطـئ من ظن يوماً أن لــلــثــعــلــب ديــنــا

فالانزياح في دلالة الذكاء عند الثعلب واضح في القصة الشعرية عند أحمد شوقي؛ فالثعلب على شهرته في الذكاء وعظمة الحيلة لم يستطيع أن يخدع الديك المشهود له بالصدق وحسن النية، وهو بهذا يسوق انزياحاً دلالياً مغايراً في الأسلوب والوظيفة لما نجده في حكايات الثعلب عند ابن المقفع، ومن ثم عند لافونتين.

وأياً ما يكن شأن التوظيف الحكائي لقصص عالم الحيوان فالفضل الأكبر يرجع إلى ابن المقفع الذي قام بدور حضاري رفيع حين مزج الثقافة الهندية الفارسية الممثلة بكتاب (كليلة ودمنة) بالثقافة العربية الإسلامية ليعالج في ضوء حكاياته النظم السياسية والإدارية في عصره؛ ومن ثم معالجة كثير من الهموم الاجتماعية التي يعاني منها مجتمعه، ثم أدى هذا الكتاب دوراً حضارياً آخر في الأدب الغربي فجعله لافونتين منارة يهتدي بها في انتقاد ما يعاني منه مجتمعه، ولما قام الكتاب بهذا الفعل الحضاري المتميز باعتباره أنه أصبح هدية عظمى للبشرية كلها أعاد تفتيح العيون العربية على منزلته ومكانة صاحبه التي التقطت مرامي أهدافه فأفادت منه ومما جاء في حكايات

لافونتين؛ لتجمع بينهما وتحيي صورة أدبية رفيعة لها في الأدب العربي الحديث كما تمثل في حكايات شوقي.

هكذا استطاع ابن المقفع أن ينزل نفسه في منزلة مرموقة من نفوس الأدباء قديماً وحديثاً؛ وليصبح أدبه وترجماته جسر تواصل ثقافي بين الثقافات القديمة من جهة، وبينه وبين الحضارة المعاصرة من جهة أخرى ليس في كليلة ودمنة فقط ولكن في بقية كتبه أيضاً التي ترجمت إلى عديد من لغات العالم[47]. فابن المقفع احتل مكانة ملحوظة في تاريخ البشرية فكراً وأدباً، وقدم للعربية جملة من الأساليب الفنية الجديدة في التعبير لكل من جاء بعده، فضلاً عن المنهج العلمي في الكتابة والتأليف، ولعل هذا كله يتضح لدينا في العديد من الفنون النثرية وموضوعاتها وترقيق أساليبها مما يأتي.

فنونه النثرية وموضوعاته

حفل الأدب العربي خاصة، والثقافة العربية عامة بكتاب بلغوا بكتاباتهم النثرية درجة عالية، ومرموقة تركت بصماتها في نفوس القدماء والمحدثين،أياً كان الجنس النثري الذين يتفوقون فيه أدباً أو نقداً؛ أو تاريخاً أو لغة، ترجمة أو أسيراً؛ فقهاً أو تفسيراً، فلسفة أو علماً، ومن يرجع إلى ما تركه ابن المقفع يدرك أن تركته الإبداعية كانت متنوعة على الصعيد الأدبي، والتاريخي والفلسفي والديني، والسياسي والاجتماعي، فإنتاجه متنوع الاتجاهات؛ إذ كتب في التاريخ والسير والاجتماع والأخلاق والأدب، ونطق بالحكمة

(47) انظر تاريخ الأدب العربي- بروكلمان- 3/98-99.

obeikandi.com

والشعر، وفهم البلاغة بأسلوب حضاري ينبع من طبيعة عصره وثقافته، إننا حين نقرأ آثاره نتعرف في قراءتها إلى كنوز قديمة تتحدث عن شخصيات ومناهج وأفكار وعقائد وفنون وآداب وحكم وأمثال، في الوقت الذي تطلعنا على طبيعة أدبه، وفنون الكلام في عصره، وتطلعنا على تفرده في مصنفاته التي أثنى عليها الأصمعي قائلاً: (صنف ابن المقفع المصنفات الحسان التي لم يصنف في فنها مثلها)[48]. فكير منا قد لا يدرك الفرق بين ما كتبه ابن المقفع من موضوعات وفنون أدبية وبين ما كتبه غيره من سابقيه أو معاصريه أو لاحقيه. فالشريف الرضي يرى أن النثر عند العرب منذ القديم ثلاثة أجناس أو ثلاثة اتجاهات فنية كبرى وهي:[49]

1 - الخطب والأوامر.
2 - الكتب والرسائل.
3 - الحكم والمواعظ.

وبهذا ألغى سجع الكهان المعروف للجاهليين، وأدخل الوصايا في الخطب إن كانت مشافهة وبالرسائل إن كانت مكتوبة، كما أدخل الأمثال والأدعية في كتابه (النثر الفني) فصنف النثر أربعة أصناف؛ فضلاً عن أنه يرى أن النثر الفني عرف منذ العصر الجاهلي[50]. وهذا الرأي غير دقيق على إطلاقه؛ إذ أخذ النثر الفني يظهر شيئاً فشيئاً بنتيجة التأثير الإسلامي؛ ودخل أبناء البلاد المفتوحة في الإسلام، دون أن ننكر وجود نثر عربي جاهلي ظهر بمقتضى

(48) انظر وفيات الأعيان 2/ 151.
(49) انظر مقدمة شرح نهج البلاغة1/2-3 بينما أجناس الكلام المنظوم عند أبي هلال ثلاثة (الرسائل والخطب والشعر) انظر الصناعتين 179.
(50) انظر النثر الفني في القرن الرابع 11-13.

obeikandl.com

حاجاتهم إليه؛ واتسم بأساليب كلامهم التداولي كالإيجاز والسجع والازدواج، أما تصنيف الدكتور زكي المبارك فهو كما يلي:

1 - الأخبار والقصص

2 - النقد الأدبي

3 - الآراء والمذاهب

4 - الرسائل والعهود

فنونه النثرية:

لما صنف زكي المبارك كتابه (النثر الفني في القرن الرابع) على هذا التصور كان يتجاهل على نحو ما جملة من فنون القول التي أوجدها ابن المقفع، وهي خمسة:[51]

1. التراجم والسير: مثل (خداى نامه)و(آيين نامه)و(التاج).
2. الأحاديث المختلفة: وتشمل الحكم والفكاهة والأخبار والخطب والوصايا، وغيرها مما يتفق معها كالنصائح الأخلاقية والتربوية[52].
3. الرسائل والعهود: وتشتمل على الرسائل الرسمية والإخوانية وبما يتصل بها من الأجوبة والتوقيعات، أياً كان الموضوع الذي تعالجه سياسياً؛ أو فكرياً؛ وتربوياً أو اجتماعياً كالتعزية والتهنئة بالسلامة وغيرها[53].

(51) راجع ما تقدم ص 44 وما بعدها.
(52) انظر مثلاً أمالي المرتضى 1/ 136 وجمهرة رسائل العرب 54/3 (في وصف أخ له) وراجع ما تقدم (حاشية 49 و50 و52) من الفصل الأول وانظر ما يأتي حاشية (160 و161 و171 و174 و237 و239 و240 و243 و247).
(53) انظر مثلاً جمهرة رسائل العرب 30/3 (رسالة الصحابة) و48 (رسالة اليتيمة)و53 رسالته إلى يحيى بن زياد.

obeikandi.com

ومن ثم رافقت العهود والمواثيق مبدأ الرسائل لاجتماعهما في عنصر الكتابة منذ القديم، مهما كانت طبيعتها الفنية، وحجمها وهيكلها، ومن أهمها لديه كتاب الأمان المشهور.

4. الكتابات الدينية والصوفية: عرفت الكتابة الدينية في الجاهلية بما تواضع عليه القوم من سجع الكهان؛ ولما جاء الإسلام، وضعت الخطب والرسائل والوصايا في سبيل الدعوة الجديدة، ثم نشأت أنماط فنية نثرية إسلامية كالمناظرة الدينية بين الأنبياء والمشركين، أو كالقصص الديني؛ والإخبار بالغيب، وكالدعاء... مما أوحى به القرآن الكريم من أنماط نثرية، ثم عرف على يدي معاصري ابن المقفع وضع كتب السير والمغازي المتعلقة بالرسول الكريم، مثل ابن اسحق في السيرة النبوية.

أما ابن المقفع فقد جعل الكتب الدينية منصبة على ترجمة ما يتعلق بسير رجال العقائد الفارسية، مثل(مزدك) و(الدرة اليتيمة)... كما وشت به الكتابات التي تناولت هذين الكتابين، ويبدو أن كتاب (الدرة اليتيمة) نحا منحى زاهداً جعل بعض المتصوفة يفيدون منه ويكتبون على منواله. ولهذا كله صارت الكتابات الدينية والتاريخية المتعلقة بالمذاهب والعقائد منبعاً للفنون النثرية المختلفة في الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وغيرها.

5. الكتب المتخصصة: أوجد ابن المقفع للمرة الأولى في تاريخ الأدب العربي ما عرف بالكتب المنظمة المبوبة في موضوعات خاصة محددة الأهداف سواء كانت مترجمة أم مؤلفة، وهذا شكل من التأليف لم

obeikandl.com

يعرفه العرب من قبل، ويمثله كتاب (كليلة ودمنة) و(الأدب الكبير) و(الأدب الصغير)... وهذا النمط من البحوث يتعلق بموضوع ما في أي اتجاه فني أو اجتماعي أو فكري أوديني...أو أدبي أو لغوي أو نقدي.

فقد صار الكتاب مبنياً على تبويب دقيق وفق منهج يقوم على المقدمات والنتائج؛ والعلة والمعلول. وفيه تسخر الحكمة والنصيحة والوصية والموعظة والأمثال كلها للموضوع الذي يعالجه الكاتب، هكذا ندرك أن النثر الذي أبدعه ابن المقفع لم يعد مقسوماً إلى جنسين أساسيين الخطب والرسائل؛ وباقي الأنماط النثرية داخلة فيهما، وإنما صارت فنون النثر على يديه ذات أشكال جديدة، فنثره قائم على التنوع والتعدد، ولكنه يتصل بوحدة المنهج العلمي السديد للبنية الشكلية والداخلية. فلا رسالة ولا كتاب من دون مقدمة ترسم كل ما هو مقبل عليه صاحبهما من جهة الطبيعة والمضمون والهدف، ومن ثم فإن كل موضوع نثري صار وحدة متكاملة للعديد من الأفكار المتوافقة في بنية داخلية متماسكة، ولعل الحكم والنصائح كانت تدخل فيها وكأنها أشبه باللآلئ التي تنتظم في عقد متصل، بهذا كله نهض ابن المقفع بالنثر الفني الذي تجاوز فيه أستاذه عبد الحميد الكاتب؛ إذ أفاد فيه من تجارب سابقيه؛ وحدة ذكائه، واتصاف عقله بالتنظيم والدقة؛ مع حس سليم مرهف، ومنهج علمي واضح ومدروس مسبقاً، إن المعارف الكثيرة التي حازها ابن المقفع، والتجارب العميقة التي عايشها على الصعيد الشخصي والاجتماعي والسياسي والديني... جعلته يرود فنوناً نثرية لم يتقدم فيها عليه أحد، وكذلك راد حقولاً من المعاني والموضوعات المبتكرة؛ فضلاً عن تجديده في العديد من

obeikandl.com

الأساليب وترقيق عدد آخر غيرها...[54]

موضوعات نثره:

غدا ابن المقفع مدرسة في النثر الفني، منهجاً، وفنوناً وموضوعات، وأساليب؛ يحتذي حذوها كثير من الأدباء، ومن هنا لابد أن نشير إلى أبرز الموضوعات التي عالجها، سواء كانت موضوعات ذاتية أم موضوعية، متوجهة للنفس أم للآخر، كما رأيناها في كتابي (الأدب الكبير والأدب الصغير) علماً أننا لا نستطيع أن نهمل الإشارة إلى بعض آثاره الأخرى في الحواشي بادئاً بالموضوعات العامة.

1. الموضوعات العامة:

1 -الموضوعات الدينية والاجتماعية:

لا يتسع المجال لدينا لكي نتحدث عن هذا الاتجاه برمته؛ ولعل موضوع معالجة أمور الدنيا والآخرة يعد واحداً من أبرز الموضوعات الدينية التي فتح المجال أمامها رحباً في الدين الإسلامي منذ بعثة النبي الكريم، إذ لابد للمؤمن من القيام بالموازنة الدقيقة بين دنياه وآخرته، وإلا خسر إحداهما، فالعاقل هو الذي يقيم علاقته مع كلتيهما على ميزان دقيق مستمد من قوله تعالى: (وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة؛ ولا تنس نصيبك من الدنيا)(القصص 28/77) ومن هنا وجدنا ابن المقفع أول من يعمل بهذا قولاً وفعلاً؛ كما في عبارته: (من أراد أن يبصر شيئاً من علم الآخرة، فالعلم الذي يعرف به ذلك؛ ومن أراد أن يبصر

(54) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي133 و128.

obeikandl.com

شيئاً من أمر الدنيا فبالأشياء التي هي تدل عليه).[55] فالعالم العاقل يهتدي إلى الله بكل ما في الكون من دلائل، (وأفضل يعلم به علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح أن يستصلح بما أوتي من ذلك ما استطاع من الناس؛ ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله، وحب حكمته، والعمل بطاعته، والرجاء لحسن صوابه في المعاد إليه، وأن يبين الذي لهم من الأخذ بذلك، والذي عليهم في تركه؛ وأن يورث ذلك أهله ومعارفه ليلحقه أجره من بعد الموت)[56] ومن ثم وقف مصلحاً اجتماعياً ودينياً، وإن لم يبلغ في هذا مرتبة رجل الدين؛ إذ ربط بين مفهوم الدين والدنيا. ولكي يضمن هذا التوازن بين الدنيا والآخرة، كان يتوجه إلى الناس بالنصح والإرشاد، وتهذيب السلوك والسمو بالمثل حتى صار ذلك كله موضوعاً بارزاً في كتبه التي جعلها بين أيدي الناس، فالخلق الكريم يبني المجتمع السليم.

2 -الموضوعات الأخلاقية:

تعد الموضوعات الخلقية ذات منزلة خاصة عند كثير من القدماء والمحدثين وفي طليعتها الدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهي عن الرذائل، وتهذيب النفس. ونرى أن هذا الاتجاه ليس من صنع أمة دون أخرى؛ ولكن الإسلام كان به أخص، وكذلك الديانات السماوية الأخرى، والظاهر أن ابن المقفع قد أكثر منه حتى احتل مساحة عظيمة من آثاره؛ وتنوعت اتجاهاته، فتميز بنسبة تناوله عما وجدناه عند العديد من دعاة الأخلاق، وهو حين يدعو إلى مكارم الأخلاق،

(55) الأدب الصغير 44 وانظر فيه 15 و22 وجمهرة رسائل العرب 57/2.
(56) الأدب الصغير 37-38 وانظر جمهرة رسائل العرب 58/3، وراجع ما تقدم عن إسلامه في الفصل الأول، وانظر فيه حاشية (21 و25 و26 و27 و29 و31)خاصة.

obeikandl.com

ويخص على التواضع والصدق والصبر والكرم والشرف ونزاهة العرض والحذر من أكاذيب الناس والابتعاد عن الحسد[57] وغير ذلك فإنه في الوقت نفسه ينهى عن كل رذيلة وإثم. فهو مثلاً يرى (رأس الذنوب الكذب)[58]؛ ويحذر تحذيراً شديداً من العجب واللجاجة والغضب اللعن والمراءاة والمماراة، ويعيب الجبن والحرص والبخل...والنفاق...[59]

وهو حين يتحدث عن ذلك كله فإنه يربط موضوعاته بمفهوم العقل؛ فيجعل له المكانة الأولى باعتباره الرقيب الدائم على النفس لمحاسبتها في كل أمر، فيقول: (وعلى العاقل مخاصمة نفسه، ومحاسبتها والقضاء عليها، والإثابة والتنكيل بها)[60]. فما هذب المرء كنفسه، ومراقبة عقله لكل تصرف يصدر عن النفس الأمارة بالسوء. فالعقل يحصي مساوئ النفس في الدين والأخلاق ويتفقد (محاسن الناس ويحفظها على نفسه)[61]، و(لو كان حسن الخلق رجلاً يمشي بين الناس لكان رجلاً صالحاً) كما في الحديث الشريف[62]، وليعلم كل إنسان (إن الصبر صبران: صبر المرء على ما يكره، وصبره عما يحب)[63]. وأول ما ينبغي عليك أن تحفظه من الرذيلة والشر إنما هو لسانك؛ لأنه (أداة مصلة يتغالب عليه عقلك وغضبك وهواك وجهلك. فكل غالب عليه مستمتع به وصارفه في محبته؛ فإذا غلب عقلك فهو لك؛ وإن غلب عليه شيء من أشباه ما

(57) انظر مثلاً: الأدب الصغير 44-45 والأدب الكبير 116 و122- 127 وجمهرة رسائل العرب 58/3.
(58) الأدب الصغير 46.
(59) انظر مثلاً: الأدب الصغير 40 والأدب الكبير 113 و118 و122 و129 وجمهرة رسائل العرب 56/3.
(60) الأدب الصغير 23.
(61) الأدب الصغير 25.
(62) الجامع الصغير من حديث البشير النذير 2/ 374 رقم 74- 72.
(63) الأدب الكبير 114.

سميت لك فهو لعدوك)[64]؛ و(رحم الله امرأ أصلح من لسانه)[65].

فالتأسيس للمفهوم الخلقي يبدأ من الفرد، ثم ينتهي الى الجماعة؛ لتصبح التربية الفردية الخلقية الذاتية تربية جماعية اجتماعية، وكأني بابن المقفع يرى تدني العلاقات الخلقية الفردية والاجتماعية في عصره...ولما تعمق بمعرفة واقعه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ولمس فيه مدى ما وصل إليه من فساد وانحراف وفوضى وانهيار...أكثر من مقولاته الأخلاقية التي تحث على مكارم الأخلاق، وتنهي عن الرذائل والشر، ومن ثم ربط ذلك بالسلطان والأحداث السياسية التي تعصف بالمجتمع، ولا صلاح للجسد بغير صلاح الرأس، على أهمية كل منهما فالدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي إنما هي دعوة إلى تهذيب النفوس وتربيتها على كل خلق رفيع، ومن هنا تأتي الأهمية الكبرى لموضوع التأدب والتأديب؛ وهو موضوعنا الآتي.

1. هذا الموضوع أحد الموضوعات القديمة للعرب وغيرهم، وقد شدد عليه القرآن الكريم كثيراً، فالتأديب يبدأ بالنفس ليكون صاحبها قدوة حسنة للمتعلمين على يديه، فحاجة المربي إلى تأديب نفسه أكثر حاجة من أي شيء آخر، وهو مصداق لأبي الأسود الدؤلي[66]:

ابدأ بنفسك وانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ... بالقول منك وينفع التعليم

(64) الأدب الكبير 111.
(65) الجامع الصغير رقم 23- 44.
(66) ديوان أبي الأسود الدؤلي 404 وراجع مضمون حاشية (4 و25 و26 و27) من الفصل الأول.

obeikandl.com

وكأن ابن المقفع نظر إلى شعر أبي الأسود وهو يقول: (من نصب نفسه للناس إماماً في الدين فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والأخدان، فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه)[67] . ومن ثم يربط بين التعلم والرغبة؛ فلا علم بلا رغبة فقال: (من أبواب التوفق والتوفيق في التعلم أن يكون وجه الرجل الذي يتوجه فيه من العلم والأدب فيما يوافق طاعة ويكون له عنده محمل وقبول)[68]. ومن ثم لابد للمتعلم أن يحسن الاستماع، فالأدب كل الأدب الصمت الواعي بين يدي المؤدب[69].

ومن هنا فإن العقل يرافق الأدب، ويحتاج إليه كاحتياج الجسم إلى الطعام فيقول: (ولسنا إلى ما يمسك أرماقنا من المأكل والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذي به تفاوت العقول)[70]. وإذا كان المعلم إلى تعميق معارفه بعد أن تحلى بكل خلق كريم فلابد له من السعي إلى العلم النافع، ليصبح في عداد العلماء وهو فيما نتحدث عنه فيما يلي.

2. الموضوعات العلمية:

لقي موضوع العلم في كل زمان ومكان منزلة مرموقة؛ واحتل من مفاهيم الدين المنزلة الأولى بعد صحة الاعتقاد، وجعل العلماء ورثة للأنبياء؛ وارتبط العلم بالحكمة والنبوة، (فالحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك)[71]، والإنسان يأخذها أن وجدها، مهما كانت

(67) الأدب الصغير 29.
(68) الأدب الصغير 41.
(69) انظر الأدب الكبير 133.
(70) الأدب الصغير 19.
(71) انظر الجامع الصغير من حديث البشير النذير 1/ 519 رقم 27- 38.

obeikandl.com

أقدار قائلها. وهذا ما انتهى إليه ابن المقفع في مفهوم العلم، قائلاً: (لا يمنعنك صغر شأن أمرئ من اجتناء ما رأيت صواباً والاصطفاء لما رأيت من أخلاقه كريماً؛ فاللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها). فهذه الحكمة الرائعة تبين مدى قيمة العلم في ذاته، ثم يتابع حكمته لبيان أثره مع الأدب فيقول: (العلم زين لصاحبه في الرخاء، ومنجاة له في الشدة. بالآداب تعمر القلوب وبالعلم تستحكم الأحلام)[72].

ولهذا كله فهو يحبب بالعلم والعلماء نفوس الناس فيقول: (حبب إلى نفسك العلم حتى تلزمه وتألفه، ويكون هو لهوك ولذتك وسلوتك وبلغتك. واعلم أن العلم علمان: علم للمنافع وعلم لتذكية العقول)[73].

وبهذا فالعلم قرين العقل، وعلى كل ذي لب أن يدرك أن العلماء يتفاوتون بدرجات العلم، وعليه أن يطلبه ممن هو أعلم منه، وأن يقدمه إلى من هو أدنى منه فيقول: (أما بعد فتعلم العلم ممن هو أعلم به منك، وعلمه من أنت أعلم به منه؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت)[74].

وكأن هذا الكلام مأخوذ من الحديث الشريف: (العلم حياة الإسلام وعماد الإيمان؛ ومن علم علماً أتم الله له أجره؛ ومن تعلم فعمل علمه الله مالم يعلم)[75]. وكل من علم لا ينبغي له أن يغتر بعلمه، ولا أن يعتد به، فالعلم لابد له من المذاكرة الدائمة مع ذوو الألباب، ولم يجامعوه عليه؛ فإنه لا يستكمل

(72) الأدب الصغير 41.
(73) الأدب الكبير 115.
(74) أمالي المرتضى 1/ 136- 137 وانظر جمهرة رسائل العرب 3/ 54.
(75) الجامع الصغير 2/ 154 رقم 5711 وانظر رقم 5656.

obeikandl.com

على الأشياء بالعقل الفرد)[76].

وإذا كان الإنسان قليلاً بنفسه، والعقل مركب على النقص، فإن العلم يبنى على أساس المعارف التراكمية واجتماع العقول على الآراء، مما يدعو العالم إلى المعرفة بدقائق الأمور؛ وبمواضع العلوم[77] فالعالم فطن كيس لا يتطاول على الجهال، ولا يتكاسل عن طلب العلم عند أهله، ولكل فئة أحوالها وطرائقها مما يجعله يتكيف مع كل حالة وطريقة.[78]

وبهذا كله يستدل على علم العالم العاقل، فالعالم الحقيقي الذي يشدد عليه ابن المقفع إنما هو العاقل الفطن الذي يختار مجالس العلماء ويفيد منها، دون أن يزعم أنه قد وصل إلى غاية العلم. وهذا مصداق للحديث الشريف (العلماء قادة والمتقون سادة؛ ومجالستهم زيادة)[79]؛ و(العلم خليل المؤمن؛ والعقل دليله، والعمل قيمه، والحلم وزيرة، والصبر أمير جنوده، والرفق والده، واللين أخوه)[80] كما ورد في حديث آخر. ولعل هذا ما نظر إليه ابن المقفع حين جعل العلماء أحق بالتدبير فقال: (وأحقهم بالفضل أعودهم على الناس بفضله؛ وأحقهم بالعلم أحسنهم تأديباً وأقربهم إلى الله أنفذهم في الحق علماً وأكملهم به عملاً؛ وأحكمهم أبعدهم من الشك في الله)[81]. وفي الحديث نقرأ (العلماء أمناء الله على خلقه)[82]، (والعالم أمين الله في الأرض)[83]. إن ما بين أيدينا من

(76) الأدب الصغير 45.
(77) الأدب الكبير 131.
(78) الأدب الصغير 28- 29.
(79) الجامع الصغير من حديث البشير 2/ 153 رقم 5704.
(80) الجامع الصغير من حديث البشير 2/ 154 رقم 5713.
(81) الأدب الصغير 38- 39.
(82) الجامع الصغير 1/ 152 رقم 5700.
(83) الجامع الصغير رقم 5655.

obeikandi.com

حكم بليغة عن العلم لابن المقفع يبرز مدى إيمانه الصحيح؛ سواء استمدها من تراثه الفارسي، أم استقاها من الحكمة النبوية الشريفة؛ فجمع حسنا على حسن في هذا المضمار. ومن هنا يتصل أي علم بعقول العلماء واستشارتهم وما خاب من استشار، وهذا موضوع آخر ركز عليه ابن المقفع ليجمع بين ثقافته الفارسية والثقافة الإسلامية؛ وليكون جسراً حضارياً فاعلاً بينهما، وليس غايته كما ذهب إليه حامد عبد القادر حين عمم عبارته باتهام من نقل عن الفارسية، وكأنه يعني ابن المقفع قبل غيره، أن يعيد أمجاد قومه فقال: (بقيت آثارهم وأمجادهم كامنة في صدورهم، أو مدونة في بعض الكتب أو متداولة في ما بينهم في منازلهم، حتى ظهر أمرها حين قامت قائمتهم، وتألق نجمهم في أفق التاريخ مرة أخرى؛ فحاولوا إعادة أمجادهم وأحياء علومهم وآدابهم في العصور القديمة)[84].

3. الحث على الرأي والاستشارة:

يعد هذا الموضوع أحد الموضوعات الهامة التي ارتبطت بالعلم والمعرفة عند ابن المقفع؛ وكذلك ارتبط بأمور خلقية وتربوية واجتماعية وسياسية، وعلى شدة ولعه بالحديث عنه فهو ليس فرداً فيه؛ فكل عاقل حكيم يرى أنه بالاستشارة يشارك الناس في عقولهم؛ ويصل إلى أحسن رأي، وفي الحديث الشريف: (ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد)[85]. وكأن الرجل نظر إلى هذا الحديث في قوله: (إن المستشير – وإن كان أفضل المستشار

(84) انظر قصة الأدب الفارسي101/1.
(85) الجامع الصغير 2/ 425 رقم 7895.

obeikandl.com

رأياً -فهو يزداد برأيه رأياً؛ كما تزداد النار بالدك ضوءاً)[86]. وليس بالضرورة أن تكون الاستشارة مفيدة على الدوام، ولا الرأي بمضمون؛ مما يستدعي أمعان العقل في كل ما يعرض على المستشير؛ قبل أن تجر الاستشارة ندامة؛ فيقول: (أعلم أن المستشار ليس بكفيل، وأن الرأي ليس بمضمون، فإذا أشار عليك صاحبك برأي، ثم لم تجد عاقبته على ما كنت تأمل فلا تجعل ذلك عليه ذنباً، ولا تلزمه لوماً وعذلاً...)[87]. وقيل المستشير مؤتمن، و(إنما المجالس بالأمانة)[88] فعلى العاقل أن يكون أميناً بإسناد الآراء إلى أهلها، لا أن ينتحلها لنفسه، فيقول: (إن سمعت من صاحبك كلاماً أو رأيت منه رأياً يعجبك فلا تنتحله تزيناً به عند الناس، واعلم أن انتحالك ذلك مسخطة لصاحبك؛ وأن فيه مع ذلك عاراً وسخفاً. فإذا بلغ بك ذلك أن تشير برأي الرجل وتتكلم بكلامه، وهو يسمع جمعت مع الظلم قلة الحياء، وهذا من سوء الأدب الفاشي في الناس).[89] وفي الحديث (إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله تعالى، فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يخاف)[90] بيد أن هذا كله فشا في كثير من الناس اليوم دون أن يردعهم دين ولا خلق، ولا سيما أن سنة التأليف بين الكتاب -من يزعمون أنهم كتاب - صارت مبنية على السرقة والوقاحة، وإذا كان يشدد على الاستشارة بين الإخوان والناس عامة فإنه يجعل الاستشارة واجبة على السلطان؛ إن لم تكن فرضاً عليه، ولا سيما حين يختار بطانته؛ فهي بطانة مأمونة ولها مزية وفضل. لهذا فإن الرجل فيها يجب أن (يكون

(86) الأدب الصغير 58- 59؛ والودك: الدهن الأبيض.
(87) الأدب الكبير 133.
(88) الجامع الصغير من حديث البشير رقم 2575.
(89) الأدب الكبير 102- 103.
(90) الجامع الصغير رقم 2576.

شرفه ورأيه وعلمه أهلاً لمجلس أمير المؤمنين، وحديثه ومشورته)، لا أن يكون ذا قرابة.[91] ولسنا نرتاب في أن ابن المقفع قد أقام مفهومه للاستشارة على أساس عقلي منظم يستشعر فيه مدى خطورة الرأي الفردي؛ لأنه يتصف بالنقص مهما بلغت عبقرية صاحبه؛ وهو ما يتفق مع الدين الإسلامي، والسنة النبوية المطهرة، فالاستشارة مؤسسة في قوله تعالى: (وشاورهم في الأمر)(آل عمران2/ 159) وقوله سبحانه (وأمرهم شورى بينهم)(الشورى 42/ 48) ولا يساورنا شك في أن ابن المقفع قرأ القرآن الكريم، وأدرك قيمة الشورى التي يطرحها فأسس كلامه على موافقته منطلقاً في ذلك من تجاربه الواقعية التي يراها، فما يستشعر فيها إلا الاستبداد بالرأي؛ وكذا لم يجد مفهوم المشورة واضحة في أنظمة فارس الإدارية والسياسية، لأنها أنظمة سلطوية ملكية كسروية.

4. الموضوعات السياسية (السلطان):

كل من قرأ (كليلة ودمنة) أدرك أن موضوع السلطان وكل ما يتصل بالكتابة فيه وفي شؤون الحكم والدولة، هو من صناعة الأمم القديمة، ولكن أول من عرّفنا بهذا الكتاب كان ابن المقفع نفسه، ويبدو لنا أن الواقع الإداري السياسي للخلافة والولايات في عهد أبي العباس السفاح وفي عهد أخيه المنصور قد زاده قلقاً وهلعاً، لانتشار الظلم والفساد والفقر في أنحاء الدولة.

ومن هنا كان ابن المقفع قد لجأ إلى الترميز والاستعارة في هذا الكتاب المترجم ليعبر عما يتوخاه ولكنه سرعان ما تخلى عن ذلك وكتب عدة أفكار نثرية متكاملة النسق حول السلطان في الأدب الصغير، ثم صارت موضوعاً

(91) جمهرة رسائل العرب 3/ 44 (رسالة الصحابة) وانظر الأدب الصغير 31.

openkandil.com

مبوباً مترابطاً يحمل عنوان (السلطان) في الأدب الكبير، ثم إن جملة من رسائله تناولت جوانب هامة جداً من أمور السلطان تتعلق بالخلافة و الولايات ووضع الرؤية النافعة للقضاء على المفاسد التي وقعت فيها وشعر بها قبل غيره، ثم قدمها للخليفة على سبيل مذكرة أو كتاب.

إذاً؛ أخذ موضوع (السلطان) حيزاً كبيراً من عقل ابن المقفع وأدبه؛ واتصف بخصائص فنية راقية لم يسبقه إليها أحد، بما فيهم عبد الحميد الكاتب الذي عرف برسالته المشهورة إلى ولي العهد.[92] وكل من قرأ موضوعاته النثرية عن السلطان أدرك أنها ذات وجه أخلاقي اجتماعي وديني، ولم تكن مخصصة فقط للجانب السياسي والاقتصادي في الدولة، ولما ظهرت (رسالة الصحابة) ملبية للوجوه كلها فإن (الأدب الكبير) قد حمل وجهاً أخلاقياً سياسياً واجتماعياً، لأنه حكم رائعة ونصائح بديعة مقدمة إلى السلطان، ومما ورد في شأن الرعية والسلطان قوله ينصحه: (لتعرف الرعية أبوابك التي لا ينال ما عندك إلا بها؛ والأبواب التي لا يخافك خائف إلا من قبلها. احرص الحرص كله على أن تكون خابراً أمور عمالك، فإن المسيء يفرق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك؛ وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك. ليعرف الناس - فيما يعرفون من أخلاقك - إنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب، فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي)[93]. إذاً شدد ابن المقفع في موضوع (السلطان) على العدل ومحاسبة النفس، ومحاسبة الولاة[94] كقوله: (إن

(92) جمهرة رسائل العرب 2/ 406، رقم الرسالة 505.
(93) الأدب الكبير 75.
(94) انظر جمهرة رسائل العرب 3/ 36.

obeikandl.com

للسلطان المقسط حقاً لا يصلح بخاصة ولا عامة أمر إلا بإرادته)[95].

وقد يكون ابن المقفع من الكتاب القلائل الذين تحدثوا عن العلاقة بين الراعي والرعية؛ وطلب إلى الرعية طاعة الخليفة ما لم تكن طاعته في معصية الله[96].

وهذه الفكرة - كما اعتقد - مستمدة من المفاهيم الإسلامية وفق القاعدة الشهيرة: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، بيد أن ابن المقفع قد تفرد بكتاباته عن السلطان حين قسم الفساد والظلم بين الرعية والراعي على أساس فساد الزمن، وهو بينه في رسالته (اليتيمة)[97]. ومهما يكن الأمر صار السلطان أحد الموضوعات النثرية التي تناولها ابن المقفع بالحديث، وبين كيفية التعامل مع السلطان إذا ابتلي الإنسان بمنصب في ولاية أو مركز ما. ومن ثم عليه أن يدرك بوعي كامل ما الذي يفعله مع الأعلى منه، والأدنى منه؛ وأن يلتزم الأدب والاعتدال في المنطق أمام السلطان، ولا يمتنع عليه وهو يحمل أعباء الرعية ويتفقد أحوالها أن يتزين بالمشورة وأهل الفضل والرأي. ومما قاله في الحذر من سخط السلطان: (اعلم أن أكثر الناس عدواً جاهداً حاضراً واشياً وزير السلطان ذو المكانة عنده، غير أنه يجترأ عليه ولا يجترأ على السلطان)[98]. هكذا وجدنا أن موضوع السلطان إنما هو باب نثري يستند إلى المناقشة العقلية المستمدة من الثقافة الفارسية لأنظمة الحكم، وإن ساقه بأسلوب عربي رصين. فابن المقفع يملك عقلاً منظماً مرتباً ومدركاً لطبيعة

(95) الأدب الصغير 43.
(96) انظر جمهرة رسائل العرب 3/ 34.
(97) انظر جمهرة رسائل العرب 3/ 34.
(98) الأدب الكبير 89، وانظر كليلة ودمنة 11- 12 وبعد، و 51- 53 و73.

obeikandl.com

النظام السياسي لأنه يعمل في أحد مفاصل الحكم عند أعمام الخليفة، مما هيأه للاطلاع على خفايا كثيرة تعاني منها أجهزة الخلافة العباسية، ولما رأى هذه المفاسد واستشعر عظمة تأثيرها في أخلاق المجتمع وحياة أبنائه قدم هذه النصائح للخليفة لعلها تلقى طريقها إلى عملية الإصلاح الاجتماعي والسياسي والإداري. ولا ريب أن كل من يتابع كتابات ابن المقفع سيجد جملة أخرى من الموضوعات؛ ولكنني أوثر أن أكتفي بما قدمت، لأقف عند موضوعاته الخاصة، وأقدم موضوع المرأة وأخصه بالإبراز، وإن كان أحد الموضوعات الاجتماعية، لتفرد ابن المقفع فيه.

2. الموضوعات الخاصة:

1. موضوع المرأة:

قد تكون المرأة موضوعاً هاماً من موضوعات الشعر العربي منذ القديم؛ إذ جعلها الشاعر الجاهلي مدار حياته وفنه، ثم أحاطها الإسلام برعاية عظيمة، وخصها بالقرآن الكريم بالعديد من الآيات؛ فضلاً عن بعض السور المسماة باسم النساء[99] وهي راعية البيت وسيدته ولا تزوج إلا بإذنها[100] و(إنما النساء شقائق الرجال)، كما في الحديث الشريف[101]. وعلى أهمية هذا في التشريع والدين، في تعزيز قيمة المرأة، فإن الأدباء والكتاب قبل ابن المقفع لم يعنوا في الحديث عنها في كتبهم، ما عدا رجال الحديث ومؤرخي السيرة الذين تعرضوا لها في إطار موضوعاتهم عامة، بينما جعلها ابن المقفع موضوعاً

(99) انظر مثلا صورة النساء، ومريم والمجادلة، والممتحنة..
(100) انظر مثلا الجامع الصغير: الجامع الصغير 20/ 243- 244 رقم 6364 و 6370، وانظر فيه رقم 6561.
(101) الجامع الصغير رقم 2560.

obeikandl.com

اجتماعياً وخلقياً تتركز فيه القيم الدينية والفكرية، فهو يربط البناء الاجتماعي الصحيح للمجتمع بصلاح الأسرة، وأعظم ما فيها المرأة باعتبارها مربية، فالمرأة ليست مجرد مادة للاستمتاع عند الرجال الذواقة؛ أو أنها تحفة ملففة بالثياب لا تقود إلا إلى الأرض غير امرأة واحدة، لظن أن لها شأناً غير شأن ما ذاق. وهذا هو الحمق والشقاء والسفه)[102].

ويناقش ابن المقفع هذه المسألة مناقشة دقيقة قائمة على العقل والإيمان معاً حين يحذر من الغرام بالنساء؛ فيقول: (اعلم أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأقتلها للعقل، وأزراها للمروءة وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء)[103].

فمن يسع وراء النساء للمتعة فإنما يذهب مروءته، ويزري بعقله، ويتلف ماله وينهك جسمه، فيذهب وقاره وهذا كله أوقع ما يكون في الدين نفسه فيخالف تعاليمه ومبادئه وتشيع الفاحشة في المجتمع، فابن المقفع يثير في الرجل حس المسؤولية الواعية العاقلة لكي يسيطر على نزوعه الشهواني هذا النزوع الذي لا يقود إلا لهدم الذات، وهدم مفاهيم الدين والمجتمع، ويوغل في مخاطبة عقل الرجل ومروءته حين يجعل الولع بالنساء والغرام بهن بلاء ولم يعلم (أنما النساء أشباه...وإنما المرتغب عما في رحله منهم إلى ما في حال الناس كالمرتغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس: بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم

(102) الأدب الكبير 122.
(103) الأدب الكبير121.

من النساء)[104]. وهذا المعنى - من دون ريب - مستمد من حديث الرسول الكريم(ص): (إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن البضع واحد؛ ومعها مثل الذي معها)[105]؛ وعبارة الحديث أوجز وأدق، ويؤيده حديث صغير آخر قريب منه في لفظه ومعناه[106]. ولذلك كله ينصح ابن المقفع صديقه بحماية نفسه من مطاردة الشهوة وتعقب النساء؛ فعاقبة هذا وبال عليه في أمر مروءته وفي أمر دينه، ومجتمعه حين يعرض نفسه للريبة؛ والشبهة والطمع[107]. ويظل هذا المعنى دون ما يأمر به الحديث الشريف: (عفوا من نساء الناس تعف نسائكم)[108]. ولست الآن بصدد موقفه من المرأة على اتصافه برجاحة العقل، وكان الاستاذ محمد كردعلي قد أشار إلى ذلك[109] ولكنني بصدد التنويه بعمل ابن المقفع؛ حين جعل المرأة موضوعاً فكرياً وأدبياً يعالج فيه مجموعة من الرؤى الأخلاقية والاجتماعية في وحدة فنية متكاملة ومترابطة، مستندة إلى مفهوم عقلي متدرج في تحليل ينتهي إلى درجة الإقناع. وهو يعرض ذلك بلغة سهلة واضحة يظن الجاهل أنه يحسن مثلها؛ وهذا هو مفهوم البلاغة لديه[110]. وقد استخدم في هذا الموضوع كغيره الأمثال التي غدت أداة للتوضيح والشرح من جهة؛ ودليلاً مادياً حسياً للوصول إلى العقل، بهذا وضع أول لبنة في الحديث عن المرأة، ثم فتح الطريق لغيره من بعده فخصوها بمؤلفاتهم، ومن ثم ارتبطت حركة التأليف بالرجال، وتخلفت

(104) الأدب الكبير 121.
(105) الجامع الصغير 1/ 82 رقم 624.
(106) الجامع الصغير 1/ 284 رقم 2113.
(107) الأدب الكبير 122.
(108) الجامع الصغير 2/ 16 رقم 5443 وانظر فيه رقم (5441 و5442).
(109) انظر أمراء البيان119.
(110) انظر الصناعتين 64.

openkandil.com

النساء عنهم فيها.[111] وهذا الموضوع كغيره يشهد لابن المقفع بالعمل المرتب المنظم القائم على أساس من الأوليات التي تتعلق بها النفس، فالرجل لا يغادر الفكرة إلا بعد إيصالها إلى المتلقي لإقناعه والتأثير فيه؛ وهو ما نجده في موضوع الصداقة أيضاً.

2. الصداقة والحرص على الإخوان:

قد يكون أبو حيان التوحيدي أشهر من نار على علم في الحديث عن هذا الموضوع إذ خص (الصداقة والصديق) بكتاب حمل هذا العنوان. وقد بين سبب كتابته له؛ وهو يفيد فيه أن الوزير ابن سعدان أمره أن يدون كلامه في هذا الموضوع الهام ويصله بصلاته مما يصح عنده للقدماء فلبى أمره[112]. ونقل أبو حيان أقوالاً في الصداقة عن ابن المقفع دون أن يشير إلى أنه أول من ألف باباً خاصاً في هذا الموضوع، وخصه بقسم من كتابه (الأدب الكبير) فضلاً عما بثه من آراء كثيرة في (كليلة ودمنة) و(الأدب الصغير) ورسائله الأخرى. ومما نقله عنه قوله: (وقيل لابن المقفع: الصديق أحب إليك أم القريب؟ قال: القريب أيضاً يجب أن يكون صديقاً)[113] وربما صرح باسمه[114] وربما أغفله دالاً

(111) هناك كتب ألفت في النساء منذ القديم، وقد بلغت أكثر من (70) كتابا كما ذكرها الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد في مجلة مجمع اللغة العربية (مجلد 16 جزء (5- 6) صفحة 212- 219) لسنة 1941م.. وقد أضيف إلى ما ذكره الكثير. ويلحظ المرء أن الرجال هم الذين بدأوا بالتأليف عن المرأة وكان يونس الكاتب (ت 135هـ) المعاصر لابن المقفع أول من جمع أخبارا تتصل بالقيان، وعرف بكتاب (القيان) لكنه فقد مع غيره من الكتب التي ألفت بعده؛ وكلها تتجه أتجاها لما صنعه ابن المقفع، ويمكن ذكر بعض منها مثل (النساء للهيثم بن عدي: ت 209هـ) و(أخبار النساء وغيره للمدائني: ت 225هـ) و (النساء للجاحظ: ت 255هـ) والنساء والغزل لابن قتيبة: ت 276هـ) وكلها مفقودة وإن وصلت رسالة القيان والجواري للجاحظ؛ وهي ضمن كتابه (رسائل الجاحظ) وعنوان مقالة د. المنجد (ما ألف في النساء).

(112) انظر الصداقة والصديق 10.

(113) الصداقة والصديق 28 وانظر فيه21.

(114) انظر الصداقة والصديق 21و 232 و348 على سبيل المثال.

obeikandl.com

عليه بعبارة أخرى[115]. ولا شك في أن عمل التوحيدي يمتاز كثيراً عما وجدناه عند ابن المقفع من جهات عدة؛ في المضمون والشكل، لكن ابن المقفع يظل له فضل السبق، والتبويب، والترتيب في الموضوع. ولما لم يكن الأمر هنا لهذه الموازنة وبيان خصائص كل منهما لزمتنا تلك الإشارة؛ لنقول: أن تجارب ابن المقفع وثقافته الفارسية كانت المصدر الأول لباب الصداقة عنده ثم أتى المصدر الثاني المتعلق بالثقافة العربية، ولكنه بدا باهتاً أمام السابق، على حين بدت الثقافة العربية المختزنة بالأشعار العربية وآراء البلغاء من العرب وغيرهم بارزة عند التوحيدي، وإذا كان خلو باب الصداقة من الأشعار العربية عند ابن المقفع قد قلل من اتساع دلالته فإنه قد عضده بكثرة ما قدم فيه من حكم وأمثال بمقتضى ثقافته، وبمقتضى زمن البدايات التي ألف فيها هذا الباب، فثقافة التوحيدي عربية أعرابية قبل كل شيء مما جعله يعتمد على الشعر العربي ونثره - غالباً - وإن جاء بأقوال كثيرة للقدماء من الفرس واليونان؛ بينما ثقافة ابن المقفع فارسية عربية، سابقة في الزمان مؤسسة لغيرها وظل ابن المقفع متفرداً في الحديث عن شروط الصداقة وطبيعتها، وأولها الإخلاص والتضحية، وعدم انتحال الصديق آراء صديقه، أو التطاول عليه علماً ومنصباً، ومن ثم حدد كيفية اختيار الصديق والتشبث به؛ فليس هو كالمرأة يطلقها كما أراد، (فإنما مروءة الرجل إخوانه وأخدانه)[116] ولهذا لابد من صون اللسان عن أذاته، ومواساته في حال النوائب؛ لأن (إخوان الصديق هم خير مكاسب الدنيا هم زينة في الرخاء، وعدة في الشدة، ومعونة على خير المعاش

(115) انظر الصداقة والصديق 45 و357 على سبيل المثال.
(116) الأدب الكبير 108.

والمعاد)[117].

ومن هنا يمكن التعامل الصحيح مع الصديق لديه فيقول: (انظر من صاحبت من الناس؛ من ذي فضل عليك بسلطان أو منزلة؛ أو من دون ذلك من الأكفاء والخطباء والإخوان؛ فوطن نفسك على صحبته على أن تقبل منه العفو وتسخو نفسك على اعتاص عليه مما قبله، غير معاتب ولا مستبطئ، ولا مستزيد)[118]. فالصديق في مفهوم ابن المقفع يتصف بالمروءة والكمال، والقريب الذي لا يتصف بذلك لا يوصف بالصديق؛ فإنما سمي الصديق صديقاً لما يرجى من صدقه ونفعه، وسمي العدو عدواً لما يخاف من اعتدائه وضرره[119]. بذلك كله يظل صاحبنا نسيج وحده في هذا الموضوع؛ ولا سيما حين انتقل فيه إلى رحاب الصفاء الأخلاقي، ومن ثم طلب إلى السلطان أن يختار بطانته (صحابته) من أهل الصدق والرأي، وأن يستمع إلى مشورتهم لأنهم أهل شرف وعلم، كما أثبتناه قبل قليل، والصدق أساس الصداقة وسنام الحياة والعقل. وبناء على ذلك يصبح الحرص على الإخوان من صميم المروءة والأخلاق، وهذا يوافق تعاليم الدين الحنيف ومن ثم يصبح الاستماع إليهم قبل غيرهم مدعاة للوعي والفهم والحفظ، ومن ثم تمثله والتعبير عنه بأحسن صيغة. وهو الموضوع الآخر الذي تفرد به ابن المقفع.

3. الانتفاع بحسن الاستماع والحفظ:

لقد كانت الدعوة إلى الاستماع دعوة قرآنية خالصة من أجل الفهم والتعبد؛

(117) الأدب الكبير 112.
(118) الأدب الكبير 126- 127.
(119) الأدب الكبير 127، وانظر مثلاً كليلة ودمنة 78- 79 و93و 96.

obeikandi.com

لقوله تعالى: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)(الأعراف 7/ 402) ومن ثم فالسماع دعوة للفهم والحفظ والتعبد لقوله تعالى: (وقالوا سمعنا وأطلعنا غفرانك ربنا، وإليك المصير)(البقرة 2/ 258)، وكان أدب الجاهلية والإسلام قائماً على الرؤية والسماع، ولما كان ابن المقفع قريباً من العصر الإسلامي، ومن ثم شهد بدايات تدوين الشعر، فإنه أدرك قيمة الاستماع الجيد المرهف إلى الذخائر من الكلام؛ ولكنه بين لشداة الثقافة كيفية الاستماع، وهذا ما تفرد به فقال: (تعلم حسن الاستماع، كما تتعلم حسن الكلام، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه، وقلت التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم، والوعي لما يقول. وأعلم فيما تكلم به صاحبك أن مما يهجن ما يأتي به؛ ويذهب بطعمه وبهجته ويزري به في قبوله عجلتك بذلك، وقطعك حديث الرجل قبل أن يفضي إليك بذات نفسه)[120].

فهذه المعالجة لشروط الاستماع في الكتابة النثرية هي المبتكرة عند ابن المقفع؛ ولم أجد - فيما أعلم - أحد سبقه إليها، وإن جعلها في سياق موضوع الصداقة. وكذلك ضمنها الدعوة إلى حفظ الأقوال المثيرة للأعجاب والعقل، مما تتشغل بها النفس، ومن ثم تعويدها عليها؛ فيقول: (اعلم أنه ستمر عليك أحاديث تعجبك: إما مليحة، وإما رائعة. فإذا أعجبتك كنت خليقاً أن تحفظها؛ فإن الحفظ موكل بما ملح وراع. وستحرص على أن تعجب منها الاقوام)[121].

ثم يشدد على عدد إكراه الناس على ما أعجب به، وإلا وقع من نفوسهم موقعاً سيئاً، وكذلك هو موقفه من الأخبار الرائعة، فيقول متابعاً: (ثم انظر الأخبار

(120) الأدب الكبير 133- 134.
(121) الأدب الكبير 125.

obeikandl.com

الرائعة فتحفظ منها. فإن الأنسان من شأنه الحرص على الأخبار، ولا سيما ما أروع منها، فأكثر الناس من يحدث بما سمع، ولا يبالي ممن سمع. وذلك مفسدة للصدق ومزراة بالمروءة؛ فإن استطعت ألا تخبر بشيء إلا وأنت به مصدق، ولا يكن تصديقك إلا ببرهان فافعل). فالاستماع لديه وجه من وجوه البلاغة[122]. هكذا ابتدع ابن المقفع موضوعات نثرية منتزعة ولكنها حكيت بيد صناع ماهر قائمة على المنطق والبرهان؛ مما أتاح لها القبول والبقاء، ولعل سائل يسأل: كيف يصبح الاستماع موضوعاً نثرياً، أو غيره؟! ونرى في هذا المقام أمرين: الأول يؤكد أن الاستماع والحفظ أداة أصيلة للأديب الواعي لكي يبدع إنتاجه،والثاني يوضح أن ابن المقفع ينظر إليه كأسلوب من أساليب الإيجاز في القول، ولكنه حين تحدث عن الاستماع والحفظ في موضوعية نثرية تناولها بالمعالجة، وكذلك هو مفهوم العمل عنده.

4. مفهوم العمل المنظم:

يستند هذا المفهوم إلى التدرج المنطقي في عرض الأعمال وهو عرض عقلي ينسجم مع انشغال النفس بالأوليات التي تشغف بها، ومن ثم يراعي التعاقب الزمني للمفاهيم والثقافات، إذ يحاول أن يبني البناء على البناء؛ وإن تطرف في نظرة التقديس للقدماء.[123]

ولعل ما يسوغ له هذه النظرة ما يراه من مفاسد مستشرية في نواح شتى من حياة مجتمعه، فهو يحاول إصلاحها بما يراه الأمثل، لهذا جعل همه الأساسي

(122) انظر البيان والتبيين 1/ 115- 116 والصناعتين 23و 153 و 193 والعمدة 1/ 243، وانظر حاشية 142 ممايأتي.
(123) انظر الأدب الكبير 67- 69.

إصلاح الفرد والتسامي بخلقه وعمله، وإذا صلح الفرد صلح المجتمع، وعليه بنى موضوعه الأخلاقي الإصلاحي برمته، سواء كان إنساناً عادياً أم مسؤولاً؛ ولابد لأي منهما من اعتماد مبدأ الأول فالأول حيث يقول - مثلاً: (إذا تخالجتك الأمور فاشتغل بأعظمها خطراً؛ فإن لم تستبن ذلك فأرجاها دركاً؛ فإن اشتبه ذلك فأجدرها أن لا يكون له مرجوع حتى تولي فرصته)[124]. وفي الوقت نفسه يرى أن مباشرة الصغير إنما يضيع الكبير؛ ولكل وقته، فيقول: (لا تتركن مباشرة جسيم أمرك فيعود شأنك صغيراً؛ ولا تلزمن نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعاً، وإن قلبك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك؛ وأن دأبت فيهما؛ وأن ليس لك إلا إدامة الدأب فيهما سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبك منهما؛ فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك)[125].

ولعل هذا الموضوع يعد أحد الموضوعات المستجدة في عالم النثر، وهو يدل على قدرة عقلية جبارة عند الرجل، تدعو كل إنسان إلى العمل المنسق على أساس البناء على البناء لا النقض والهدم؛ ومن ثم حسن تقسيم الزمن في أداء العمل واعتماد مبدأ الأولى فالأولى، في أي شأن فكري أو اجتماعي أو سياسي.

ولعل أهم ما ينبغي للسلطان أن يفعله أن يختار البطانة الصالحة التي تساعده في شؤون الحكم ثم يتفقدها بالرعاية والمراقبة والمحاسبة، ويتفقد أحوال الرعية؛ ويزور أمصار الدولة[126] أما المفكر المثقف الأديب فعليه أن يفهم تراثه

(124) الأدب الكبير 47- 48.
(125) انظر الأدب الكبير75- 76.
(126) انظر جمهرة رسائل العرب 3/ 32- 40 (رسالة الصحابة) والأدب الصغير 23.

obeikandl.com

ليأخذ منه العبر، ويبني عليه؛ لا أن يتنكر له؛ ثم يضعه موضعه المناسب، لذا يقول: (من أخذ كلاماً حسناً من غيره فتكلم به في موضعه وعلى وجهه فلا ترين عليه في ذلك ضؤولة؛ فإنه من أعين على حفظ كلام المصيبين ،وهدي للاقتداء بالصالحين؛ ووفق للأخذ عن الحكماء، ولا عليه أن يزداد فقد بلغ الغاية)[127].

وفي ضوء ذلك ندرك أنه يعد أحد أعظم الكتاب الذين نبهوا على أهمية ما لدى القدماء، والبناء على ما عندهم من معارف؛ فمارس بهذا أول عملية مزج بين الأصالة والمعاصرة، أو بين القديم والجديد، وجعل قيمة التراث عصية على النيل منها، فالتراث أداة فعل وتغيير وتوجيه إن أحسن فهمه، بيد أن ما نأخذه عليه هو تطرفه الشديد في تنزيه القدماء عن كل خطل حتى في القضايا الدينية؛ كما يقول: (كان صاحب الدين منهم أبلغ في أمر الدين علماً وعملاً من صاحب الدين منا، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل، فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم، وغاية إحسان محسننا أن يقتدي بسيرتهم)[128]. ولو صح كلامه في مفهوم التقليد غير المبدع لما درسناه على أنه صورة من الإبداع التي تجسد مفهوم الاتصال الحضاري بين القديم والجديد؛ وبين الثقافة الفارسية والعربية، ومن ثم في بيانه للعمل المنظم الذي نتحدث عنه وفي خصائص فنه النثري الذي ميزه كثير من سابقيه مثلما تميزت موضوعاته الكثيرة التي ذكرنا بعض مفاصلها الأساسية، وأثرت

(127) الأدب الكبير الصغير 17-18.
(128) الأدب الكبير 67- 68.

openkandil.com

فيمن جاء بعده، في احتذاء القديم، ومنهج الكتابة[129]. ولعلنا نستمد من حكمته ما يسوغ لنا هذا الرأي فهو القائل: (إذا نزل بك أمر مهم فانظر؛ فإن كان مما له حيلة فلا تعجز؛ وإن كان مما لا حيلة فيه فلا تجزع)[130]. وبعد؛ فقد يقول قائل: إن هذه الموضوعات لا تقابل ما تعارف عليه النقاد وغيرهم من قبل؛ كان الأولى أن تصنفها داخل الأجناس الأدبية الفنية كالحكمة والوصايا؛ والنصائح والخطب والرسائل..ولا سيما أن الكلام تركز - غالباً - في كتابي الأدب الكبير والأدب الصغير؛ إذ تغافلت عن الرسائل الصغيرة التي تناولت ضروباً من الآراء الاجتماعية و الإخوانية التي تمثلت بين الأصدقاء في التعزية والتهنئة والدعوة إلى الإخاء[131]. ونقول أن البحث يفرض نفسه؛ إذ يقوم على أساس بيان ما قدمه ابن المقفع من تفاعل حضاري بين الثقافة الفارسية القديمة وبين ثقافة أمة إسلامية جمعت أجناساً متعددة، وكانت ثقافتهم ولغتهم الغالبة هي العربية، ثم عاشت هذه الأمة تناقضات عديدة في مناحي الحياة والثقافة والأدب... فرأى ابن المقفع أن يضع قلمه وسيلة لانتشالها مما هي فيه، فاتجه إلى ما اتجه إليه من موضوعات وأفكار، وهي التي فرضت هذا المنهج في دراسة الموضوعات، وكذلك سندرس الخصائص الفنية الشكلية في ضوء هذا المنهج الذي يبرز الأثر الحضاري الذي قدمه ابن المقفع لأساليب النثر العربي، بينما رأى أحمد أمين أن هذا كله لا يتعلق بمسألة التأثر الثقافي الفكري بين العرب وغيرهم. فابن المقفع فعلاً كما قال:

(129) انظر مثلاً: الصناعتين 171و المثل السائر 1/ 96- 97و 100.
(130) أمالي المرتضى 1/ 136.
(131) انظر جمهرة رسائل العرب 3/ 50 وما بعدها في كتب التهنئة والتعزية والدعوة إلى الإخاء.

openkandil.com

نتاج ثقافة فارسية لقحت بلقاح عربي[132] ولكنه لقاح يتصل بالأدب الفكر والخلق معاً، ولعلنا نكتشف أثر هذا في خصائص أساليبه النثرية الشكلية.

الخصائص الشكلية لنثره:

اتضح لنا في حديثنا عن فنونه وموضوعاته أنه استطاع أن يرود حقولاً جديدة من الموضوعات، ويطرح العديد من الافكار المثيرة في السلطان والعلم والعلماء والمشورة والتأدب والتأديب والصداقة...وظهر لنا بكل جلاء ان ابن المقفع ذو حس أصيل ودقيق في رؤية القضايا التي يعالجها، فهو يتلمسها في واقعه ويشخصها ويصف ظواهر عللها ثم يكشف عقله الفذ عن العلاج الشافي لكل قضية أو موضوع...ومن هنا تبنى مفهوم العمل المنظم في حقول المعرفة وقضايا الأخلاق والمجتمع؛ مبيناً مبدأ الإصلاح في كل ذلك مما جعل أدبه مادة خصبة لموضوعات الأخلاق والتربية الاجتماعية والدينية.

وكان يعتمد طريقة التحليل الموضوعي المتكامل - غالباً - القائم على تصور عقلي مسبق للهدف الذي يرمي إليه من وراء كل قطعة أدبية صاغه عقله في لغة رشيقة سهلة ودقيقة...وبناء على ذلك ظهرت جملة من الخصائص الفنية والأساليب النثرية التي فاق فيها القدماء...قبله كعبد الحميد بن يحيى الكاتب وسالم مولى هشام بن عبد الملك وغيرهما...فقد ارتقى ببعض الأساليب، ورقق قسماً آخر من الأساليب التقليدية؛ بينما جاء بأساليب أخر من الأساليب التقليدية؛ بينما جاء بأساليب أخرى لم تعرف لسابقيه...

(132) انظر ضحى الإسلام 1/ 195.

obeikandl.com

ولعله بهذا كله قد أغنى النثر العربي في زمن بدايات النثر الفني، واستحق أن يكون أحد عباقرة الأدب والفكر والفن، عند العرب والمسلمين. ولما كان علينا إبراز الخصائص الشكلية لنثره، كان علينا أن نحيط بالملامح الفنية الكبرى لتلك الأشكال من دون تفصيل لتلك الجزئيات؛ اعتقاداً منا في ما سبق القول غناء عنه؛ وإلا وقعنا في مطب التكرار...وسنقدم ما يتعلق بوحدة الموضوعات والأفكار من جهة البناء المعماري للنص النثري؛ ثم نبرز الخصائص اللفظية...

البناء المعماري للنص النثري:

تجلى لنا ابن المقفع ناثراً من طراز رفيع وعالٍ في ممارسته التطبيقية لبناء النص؛ أغنت من مفهوم التنظير الذي ذهبت إليه من جاء بعده كالجاحظ وابن قتيبة وابن طباطبا وأبي هلال العسكري وابن رشيق وغيرهم...

فابن المقفع يصوغ موضوعه النثري في نص مترابط الأجزاء ليعالج فكرة ما؛ ثم ينتقل إلى غيرها...وما من أحد يرجع إلى ما قلناه قبل قليل في الموضوعات إلا تأكد له ذلك. ولعل (الأدب الكبير) يقوم على موضوعين أساسين (السلطان) و (الصداقة) ومن ثم عالج في إطارهما جملة من الموضوعات الجزئية. وفي (الأدب الصغير) عالج هذين الموضوعين، ولكن في إطار حكم واحدة مرصوفة، وقبل أن يتناول أياً منهما وضع مقدمة لهما، بينت طريقته في الإفادة من القدماء ورؤيته لما هو مقدم عليه، وتظل الوحدة الموضوعية أقل تلاحماً مما نجده في (رسالة الصحابة) أو في (رسالة اليتيمة) أو بقية رسائله الاخرى، أو في

(كليلة ودمنة) التي عالجت موضوع السلطان والصداقة في صميم النسيج القصصي. نحن لا نشك لحظة واحدة في أن البنية المعمارية القائمة على التدرج في عرض الأفكار إنما هي إبداع يعود فيه الفضل إلى عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى (ولي العهد) أو في رسالته عن (الشطرنج)[133] لكن تلميذه ابن المقفع خطا خطوات كبيرة حين انتقل بالموضوع إلى إطار نثري وفكري أوسع ومتنوع اعتمد فيه على تراث ثقافي فارسي عريق ثم وصله بثقافته؛ وبقي على إخلاصه لمبدأ الوحدة الفكرية الموضوعية للنص المعالج، فأي نص لديه ينقسم إلى مقدمات ومتن ونتائج؛ ثم يتفرع كل موضوع في هذا المنهج إلى أفكار تتكامل فيما بينها،وهذا الذي ميزه من سابقيه، وبهذا وضع الأسس التطبيقية لفن الكتابة بمثل ما وضع الأسس النظرية والتطبيقية لتأليف الموضوعات النثرية في كتب خاصة ومقدمة الأدب (الصغير والأدب الكبير) ومقدمة (كليلة ودمنة) تشهدان بذلك[134]، وهي أسس تبناها من جاء بعده من الكتاب[135].

ولعل الجاحظ (ت 255هـ) قد استقى منه مفهوم تلاحم الأجزاء في الشعر، فقال: (أجود الشعر ما رأيته متلازم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً؛ فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان)[136]، ونتساءل متى كان الشعر العربي يبني هذا البناء، فهذه الطريقة المتماسكة إنما هي طريقة النثر التي أسسها الرواد، على حين أن الوحدة في

133

134 راجع ما تقدم حاشية 64 و 74 و 93 و 94 ومضمونها من الفصل الثاني، وانظر صفحة 98 – 111 مما تقدم.
135 انظر مثلاً: المثل السائر 96/1 – 97 و 100.
136 العمدة 257/1 وانظر مثلاً: الصناعتين 159 - 160.

openkandil.com

الشعر كانت تقوم على وحدات أخرى لعل من أبرزها الوحدة النفسية التي ذهب إليها ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء حين تحدث عن منهج القصيدة المدحية[137]، وإن كنا لا نهمل الوحدة الموضوعية المرتبطة بالمقاصد وأغراض الشعر.

obeikandl.com

[137] انظر عيار الشعر 19 و 121 و 146 والعمدة 217/1 وما بعدها.